الله أكبر[(١)] !

جلستُ وقد مضى هَزيعٌ من اللَّيل[(٢)] ، أهيِّئ في نفسي بِناء قصَّةٍ أديرها على فتىً ، كما أحبَّ ، خبيثٍ داعِرٍ ، وفتاةٍ كما أحبَّتْ . . . عذراء مُتماجنةٍ ، كلاهما قد درس ، وتخرَّج في ثلاثة معاهد : المدرسةِ ، والرِّوايات الغرَاميَّة ، والسِّيما ، وهو مصريٌّ مسلمٌ ، وهي مصريَّة مسيحيَّةٌ . وللفتى هَنَاتٌ[(٣)] ، وسيِّئاتٌ ، لا يتنزَّه ، ولا يتورَّع ، وهو من شبابه كالماء يغلي ، ومن أناقته بحيث لم يبقَ إلا أن تَلحقه تاء التَّأنيث . . وقد تشعَّبت به فنونُ هذه المدنيَّة ، فرفع الله يَده عن قلبه ، لا يُبالي في أيِّ أوديتها هَلك ، وهو طِلبُ[(٤)] نساء ، دأبُه التَّجوالُ في طُرقهنَّ ، يتبعهنَّ ، ويتعرَّض لهنَّ ، وقد أَلِفَتْه الطُّرق ، حتَّى لو تكلَّمت ؛ لقالت : هذا ضَرْبٌ عجيبٌ من عربات الكنس . !

وللفتاة تبرُّجٌ ، وتهتُّكٌ ، يعبث بها العبثُ نفسُه ، وقد أخرجتها فنونُ هذا التَّأنُّث الأوربيِّ القائم على فلسفة الغريزة ، وما يُسمُّونه : « الأدب المكشوف » كما يُصوِّره أولئك الكتَّابُ ؛ الَّذين نقلوا إلى الإنسانيَّة فلسفةَ الشَّهوات الحرَّة عن البهائم الحرَّة . . . فهي تَبرزُ حين تخرجُ من بيتها ، لا إلى الطَّريق ، ولكن إلى نظراتِ الرِّجال ، وتظهرُ حين تظهر مُصوَّرةً ، لا بتلوينِ نفسها ممَّا يجوز ، وما لا يجوز ، ولكن بتلوين مرآتها ممَّا يُعجِب ، وما لا يُعجِب .

وكِلا اثنيْهما لا يُقيم وزناً للدِّين ، والمسلم ، والمسيحيُّ منهما هو الاسمُ وحده ؛ إذ كان من وضع الوالدين (رحمهما الله !) ، والدِّين حرِّيَّة القيد ، لا حرِّيَّة الحرِّيَّة . فأنت بعد أن تقيِّد رذائلك ، وضراوتك ، وشرَّك ، وحيوانيَّتك ـ أنت من بعد هذا حرٌّ ما وسِعَتك الأرضُ ، والسَّماءُ ، والفكر ؛ لأنَّك من بعد هذا مُكمَّلٌ

---

(١) كتبها في الأسبوع الأخير من رمضان ، وانظر « عود على بدء » من كتابنا « حياة الرافعي » . (س) .

(٢) « هزيع من الليل » : طائفة منه ، أو نحو الثلث ، أو الربع الأول منه .

(٣) « هنات » : جمع الهنة ، وهو الأمر القبيح .

(٤) « طِلْب » : طالب .

للإنسانيَّة ، مستقيمٌ على طريقتها ؛ ولكن هَبْ حِماراً تفلسف ، وأراد أن يكون حرّاً بعقله الحماريِّ ؛ أيْ تقرير المذهب الفلسفيِّ الحماريِّ في الأدب ، فهذا إنَّما يبتغي إطلاق حرِّيَّته ؛ أي : تسليط حِماريَّتِهِ الكاملة على كلِّ ما يتَّصل به من الوجود !

وتمضي قصَّتي في أساليبَ مختلفةٍ ، تمتحن بها فنونُ هذه الفتاة شهواتِ هذا الفتى ، فلا يزال يَمشي من حيث لا يصل ، ولا تزال تمنعه من حيث لا تردُّه ؛ وما ذلك من فضيلةٍ ، ولا امتناعٍ ، ولكن غريزة الأنوثةِ في الاستمتاع بسُلطانها ، وإثباتِها للرَّجل : أنَّ المرأة هي قوَّة الانتظار ، وقوَّة الصَّبر ، وأنَّ هذه الَّتي تحمل جنينَها تسعة أشهر في جوفها تمسكُ رغبتها في نفسها مدَّة حملٍ فكريٍّ ؛ إذا هي أرادت الحياة لرغبتها ، ليكون لوقوعها ، وتحقُّقها مثلُ الميلاد المفرح .

ولكنَّ الميلادَ في قصَّتي لا يكون لرذيلة هذه الفتاة ، بل لفضيلتها ، فإنَّ المرأة في رأيي ـ ولو كانت حياتها محدودةً من جهاتها الأربع بكبائرِ الإثم والفاحشة ـ لا يزال فيها من وراء هذه الحدود كلِّها قلبٌ طبيعتُه الأمومة ؛ أي : الاتِّصالُ بمصدر الخلق ؛ أي كلُّ فضائل العقيدة ، والدِّين ؛ وما هو إلا أن يتنبَّه هذا القلبُ بحادثٍ يتَّصلُ به ، فيبلغ منه ، حتَّى تتحوَّلَ المرأة تحوُّلَ الأرض من فصلها المقشعرِّ المجدب ، إلى فصلها النَّضر الأخضر .

ففي قصَّتي تذعِن الفتاة لصاحبها في يومٍ قد اعترتها فيه مخافةٌ ، ونزلَ بها همٌّ ، وكادتها الحياة من كيدِها ، فكانت ضعيفة النَّفس بما طرأ عليها من هذه الحالة . وتخلو بالفتى وفكرُها منصرفٌ إلى مصدر الغيب ، مؤمِّلٌ في رحمة القدَر ؛ ويخلِبها[1] الشَّابُّ خِلابة رُعونته ، وحبِّه ، ولسانه ، فيعطيها الألفاظ كلَّها فارغةً من المعاني ، ويُقرُّ بالزَّواج ، وهو منطوٍ على الطَّلاق بعد ساعةٍ ؛ فإذا أوشكتِ الفتاة أن تُصرَعَ تلك الصَّرعة ؛ دَوَّى في الجوِّ صوت المؤذِّن : « الله أكبر ! » .

وتُلسع الفتاة في قلبها ؛ وتتَّصل بهذا القلب رُوحانيَّةُ الكلمة ، فتقع الحياة السَّماوية في الحياة الأرضيَّة ، وتتنبه العذراءُ إلى أنَّ الله يشهدُ عارَها ، ويفجؤها أنَّها مُقدِمةٌ على أن تُفسدَ من نفسها ما لا يُصلحُه المستحيل فضلاً عن الممكن ، وترنو بعين الفتاة الطَّاهرة من نفسها إلى جسم بَغيٍّ ليست هي تلك التي هي . وتنظر بعين

(١) « يخلبها » : يخدعها .

الزَّوجة من صاحبها إلى فاسقٍ ليس هو ذاك الَّذي هو ، ويَحكي لها المكان في قلبها المفطور على الأمومة حكايةً تثور منها ، وتشمئزُّ ؛ ويصرخ الطِّفل المسكين صرختَه في أذنها قبل أن يولد ، ويُلقى في الشَّارع . . . !

الله أكبر ! صوتٌ رهيبٌ ليس من لغةِ صاحبِها ، ولا من صوته ، ولا من خِسَّته ، كأنَّما تُفرغ السَّماءُ فيه مِلءَ سحابةٍ على رجْس قلبها ، فتنقِّيه ؛ حتَّى ليس به ذرَّةٌ من دنسه ؛ الَّذي ركِبه السَّاعة . وكان لصاحبها في حِسِّ أعصابها ذلك الصَّوت الأسودُ المنطفئ ، المبهم ، المتلجلج ممَّا فيه من قوَّة شهواته ؛ وكان للمؤذِّن صوتٌ آخر في رُوحها ؛ صوتٌ أحمرُ مُشتعلٌ كمعمعة الحريق ، مُجلجِلٌ كالرَّعد ، واضحٌ كالحقيقة ، فيه قوَّة الله !

سمعتْ صوتَ السِّلسلة ، وقعقعَتها ، تُلوَى ، وتَشدُّ عليها ، ثمَّ سمعتْ صوتَ السِّلسلة بعينها يُكسر حديدُها ، ويتحطَّم .

كانت طهارتها تختنِق ، فنفذت إليها النَّسَمات ، وطارت الحمامة حين دعاها صوتُ الجوِّ ، بعد أن كانت أسفَّتْ حين دعاها صوتُ الأرض ، طارت الحمامة ؛ لأنَّ الطَّبيعة التفتتْ فيها لفتةً أخرى .

ويكرِّر المؤذِّن في ختام أذانه : « الله أكبر ، الله أكبر ! » فإذا . . .

* * *

وتَبلَّد خاطري ، فوقفتُ في بناء القصَّة عند هذا الحدِّ . ولم أدرِ كيف يكون جواب « إذا . . . » فتركت فكري يعمل عمله ، كما تلهمه الواعية الباطنة ، ونِمت[1] .

ورأيت في نومي أنِّي أدخُل المسجدَ لصلاة العيد ، وهو يعُجُّ بتكبير المصلِّين : « الله أكبر ، الله أكبر ! » ولهم هديرٌ كهدير البحر في تلاطمه ، وأرى المسجدَ قد غَصَّ بالنَّاس[2] فاتَّصلوا ، وتلاحموا : تجدُ الصَّفَّ منهم على استوائه ، كما تجد السَّطرَ في الكتاب : ممدوداً محتبكاً ينتظمه وضعٌ واحدٌ ، وأراهم تتابعوا صفّاً وراء صفٍّ ، ونسقاً على نسق ، فالمسجد بهم كالسُّنبُلة ملئت حبّاً ما بين أوَّلها وآخرها ،

---

(١) انظر « عود على بدء » من كتابنا « حياة الرافعي » . (س) .

(٢) « غصّ بالناس » : امتلأ بهم ، وضاق عليهم .

كلُّ حبَّة هي في لِفٍّ[١] من أهلها ، وشملها ، فليس فيهنَّ على الكثرة حبَّةٌ واحدةٌ تميِّزُها السُّنبلة فضل تمييز ، لا في الأعلى ، ولا في الأسفل .

وأقف متحيِّراً متلدِّداً ألتفت هاهنا وهاهنا ، لا أدري كيف أخلص إلى موضعٍ أجلس فيه ، ثمَّ أمضي أتخطَّىٰ الرِّقابَ ، أطمع في فرجةٍ أقتحمها ، وما تنفرج ، حتَّى أنتهيَ إلى الصَّف الأوَّل ، وأنظر إلى جانب المحراب شيخاً بادناً يملأ موضعَ رَجُلَين ، وقد نفح منه ريح المسك ، وهو في ثياب من سندسٍ خضرٍ ؛ فلمَّا حاذيته ؛ جمع نفسه ، وانكمش ، فكأنَّما هو يُطوَى طيّاً ، ورأيت مكاناً وسِعني ، فحططت فيه إلى جانبه ؛ وأنا أعجب للرَّجل كيف ضاق ، ولم أضيِّق عليه ، وأين ذهب نصفه الضَّخم وقد كان بعضه على بعضٍ زِيَماً على زِيَمٍ[٢] وامتلاءً على امتلاءٍ .

وجعلت أحْدس عليه ظنِّي ، فوقع في نفسي : أنَّه مَلكٌ من ملائكة الله ، قد تمثَّل في الصُّورة الآدميَّة ، فاكتتم فيها لأمرٍ من الأمر .

وضجَّ النَّاس : « الله أكبر ، الله أكبر ! » في صوتٍ تقشعرُّ منه جلود الَّذين يخشوْن ربَّهم ، غير أنَّ الناس ممَّا ألفوا الكلمة ، وممَّا جهلوا من معناها ، لا يسمعونها إلا كما يسمعون الكلام ، أمَّا الَّذي إلى جانبي ؛ فكان ينتفض لها انتفاضةً رجَّتني معه رَجّاً ؛ إذ كنت مُلتصِقاً به ، مُناكباً له ؛ وكأنَّ المسجد في نَفْضه إيَّانا كان قطاراً يجري بنا في سرعة السَّحاب ، فكلُّ ما فيه يرتجُّ ، ويهتزُّ ؛ ورأيت صاحبي يذهل عن نفسه ، ويتلألأ على وجهه نورٌ لكلِّ تكبيرة ، كأنَّ هناك مصباحاً لا يزال ينطفىء ، ويشتعل ، فقطعت الرَّأي : أنَّه من الملائكة .

ثمَّ أقيمت الصَّلاة ، وكبَّر الإمام ، وكبَّر أهل المسجد ، وكنت قرأت : أنَّ بعضهم صلَّى خلف رجلٍ من عظماء النُّفوس ؛ الذين يعرفون الله حقَّ معرفته ، قال : فلمَّا كبَّر ، قال : « الله . . . » ثمَّ بُهِتَ ، وبقي كأنه جسدٌ ليس به روحٌ من إجلاله لله تعالى ، ثمَّ قال : « أكبر » يعْزِم بها عزماً ، فظننت : أنَّ قلبي قد انقطع من هيبة تكبيره .

---

(١) « لف » : اللِّفُّ : الصنف من الناس .

(٢) أي : كتلاً على كتلٍ ، والزِّيم : المتفرق من اللحم . (ع) .

قلت أنا : أمَّا الذي إلى جانبي ، فلمَّا كبَّر مدَّ صوته مدًّا ينبثق من رُوحه ، ويستطير ، فلو كان الصَّوت نوراً ؛ لمَلأ ما بين الفجر ، والضُّحى .

* * *

وعرفت والله ! من معنى المسجد ما لم أعرف ، حتَّى كأنِّي لم أدخله من قبل ، فكان هذا الجالس إلى جانبي كضوء المصباح في المصباح ؛ فانكشف لي المسجد في نوره الرُّوحيِّ عن معانٍ أدخلتني من الدُّنيا في دُنيا على حِدَةٍ ؛ فما المسجد بناءً ، ولا مكاناً كغيره من البناء ، والمكان ، بل هو تصحيح للعالم الَّذي يَموج من حوله ، ويضطرب ؛ فإنَّ في الحياة أسباب الزَّيغ ، والباطل ، والمنافسة ، والعداوة ، والكَيْد ، ونحوها ، وهذه كلُّها يمحوها المسجد ؛ إذ يجمِع النَّاس مراراً في كلِّ يومٍ على سلامة الصَّدر ، وبراءة القلب ، وروحانيَّة النَّفس . ولا تدخله إنسانيَّة الإنسان إلا طاهرةً ، منزَّهة ، مُسْبغةً على حدود جسمها من أعلاه ، وأسفلِه شعارَ الطُّهر ؛ الَّذي يُسمَّى الوضوء ، كأنَّما يغسل الإنسان آثار الدُّنيا عن أعضائه قبل دخوله المسجد .

ثمَّ يستوي الجميع في هذا المسجد استواءً واحداً ، ويقفون موقفاً واحداً ، ويخشعون خشوعاً واحداً ، ويكونون جميعاً في نفسيةٍ واحدةٍ ؛ وليس هذا وحده ، بل يخرُّون إلى الأرض جميعاً ساجدين لله ، فليس لرأسٍ على رأسٍ ارتفاعٌ ، ولا لوجهٍ على وجهٍ تمييز ؛ ومِنْ ثمَّ فليس لذاتٍ على ذاتٍ سلطانٌ . وهل تُحَقِّق الإنسانيَّة وَحْدَتها في النَّاس بأبدعَ من هذا ؟ ولعمري ! أين يجد العالم صوابه إلا هاهنا ؟

فالمسجد هو في حقيقته موضع الفكرة الواحدة ، الطَّاهرة ، المصحِّحة لكلِّ ما يَزِيغ به الاجتماع ؛ هو فكرٌ واحدٌ لكلِّ الرؤوس ، ومن ثمَّ فهو حلٌّ واحدٌ لكلِّ المشاكل ، وكما يُشقُّ النَّهر فتقف الأرض عند شاطئيه ، لا تتقدَّم ، يقام المسجد ، فتقف الأرض بمعانيها الترابيَّة خلف جدرانه ، لا تَدخُله .

* * *

وما حركةٌ في الصَّلاة إلا أوَّلها : « الله أكبر » وآخرها : « الله أكبر » ؛ ففي ركعتين من كلِّ صلاةٍ إحدى عشرة تكبيرةً ، يَجهَرُ المصلُّون بها بلسانٍ واحدٍ ،

وكأنِّي لم أفطن لهذا من قبل ، فأيُّ زمامٍ سياسيٍّ للجماهير ، وروحانيَّتها أشدَّ وأوثق من زمام هذه الكلمة الَّتي هي أكبر ما في الكلام الإنسانيِّ ؟

* * *

ولمَّا قضيَت الصَّلاة سلَّمْتُ على الملَك ، وسلَّم عليَّ ، ورأيتُه مقبلاً ، محتفياً[1] ، ورأيتني أثيراً[2] في نفسه ، وجالت في رأسي الخواطر ، فتذكَّرت القصَّة الَّتي أريد أن أكتبها ، وأنَّ المؤذِّن يكرِّر في خاتمة أذانه : « الله أكبر ، الله أكبر » فإذا . . .

وقلتُ : لأسألنَّه ؛ وما أعظم أن يكون في مقالتي أسطر يُلهمها مَلَكٌ من الملائكة ! ولم أكد أرفع وجهي إليه ؛ حتَّى قال :

. . . فإذا لطمتان على وجه الشَّيطان ، فولَّى مدْبِراً ، ولم يُعقِّبْ ، ووضعتِ الكلمة الإلٰهيَّةُ معناها في موضعه من قلب الفتاة ! فلأياً بلأيٍ[3] ما نجت .

إنَّ الدِّينَ في نفس المرأة شعورٌ رقيقٌ ! ولكنَّه هو الفولاذ السَّميكُ الصُّلب ؛ الَّذي تُصفَّح به أخلاقُها المدافِعة .

الله أكبر ! أتدري ماذا تقول الملائكة إذا سمعت التَّكبير ؟ إنَّها تُنْشِدُ هذا النَّشيد :

بَيْنَ الوقتِ والوقت من اليوم تدُقُّ ساعةُ الإسلام بهذا الرَّنين : الله أكبر ، الله أكبر ، كما تدقُّ السَّاعة في موضعٍ ليتكلَّمَ الوقتُ برنينها .

* * *

الله أكبر ! بينَ ساعاتٍ وساعات من اليوم ترْسِلُ الحياة في هذه الكلمة نداءَها ، تهتف : أيُّها المؤمن ! إنْ كنت أصَبْت في السَّاعات الَّتي مضت ؛ فاجتهد للسَّاعات الَّتي تتلو ، وإن كنتَ أخطأتَ ؛ فكفِّر ، وامْحُ ساعةً بساعةٍ ، الزَّمن يمحو الزَّمن ، والعملُ يغيِّرُ العمل ، ودقيقةٌ باقيةٌ في العمر هي أملٌ كبيرٌ في رحمة الله .

* * *

---

(١) « محتفياً » : مبالغاً في الإكرام .

(٢) « أثيراً » : مفضَّلاً على غيري ، ومُكرَّماً .

(٣) « لأي » : اللأي : الإبطاء ، والشِّدَّة .

بين ساعاتٍ وساعاتٍ يتناول المؤمن ميزانَ نفسه حين يسمع : الله أكبر ؛ ليعرفَ الصِّحَّة والمرضَ من نِيَّتِه ، كما يَضعُ الطَّبيب لمريضه بينَ ساعاتٍ وساعاتٍ ميزان الحرارة .

* * *

اليومُ الواحد في طبيعة هذه الأرض عُمرٌ طويلٌ للشَّرِّ ، تكاد كلُّ دقيقةٍ بشرِّها تكون يوماً بليْلٍ أسود ، فيجب أن تقسِّمَ الإنسانيَّةُ يومها بعدد قارَّات الدُّنيا الخمس ؛ لأنَّ يوم الأرض صورةٌ من الأرض ، وعند كلِّ قسمٍ من الفجر ، والظُّهر ، والعصر ، والمغرب ، والعشاءِ ، تصيح الإنسانيَّة المؤمنة مُنبِّهةً نفسها : الله أكبر ؛ الله أكبر !

* * *

بين ساعاتٍ وساعاتٍ من اليوم يَعْرِض كلُّ مؤمن حسابه ؛ فيقومُ بين يَدَي الله ، ويرفعه إليه ، وكيف يكون مَنْ لا يزال ينتظر طولَ عمره فيما بين ساعاتٍ وساعاتٍ ، الله أكبر . . . ؟

* * *

بين الوقتِ والوقتِ من النَّهار ، واللَّيلِ ، تُدَوِّي كلمة الرُّوح : الله أكبر ! ويُجيبها النَّاسُ ؛ الله أكبر ! ليعتادَ الجماهير كيف يقادون إلى الخير بسهولةٍ ؛ وكيف يحقِّقون في الإنسانيَّة معنى اجتماع أهل البيت الواحد ، فتكون الاستجابةُ إلى كلِّ نداءٍ اجتماعيٍّ مغروسةً في طبيعتهم بغير ٱستكراهٍ .

* * *

النَّفسُ أسمى من المادَّة الدَّنيئة ؛ وأقوى من الزَّمن المخرِّب ؛ ولا دين لمن لا تشمئزُّ نفسه من الدَّناءة بأنفةٍ طبيعيَّةٍ ، وتحمل هموم الحياة بقوَّةٍ ثابتةٍ .

لا تضطربوا ! هذا هو النِّظام . لا تنحرفوا ! هذا هو النَّهج . لا تتراجعوا ! هذا هو النِّداء . لن يَكبُرَ عليكم شيءٌ ؛ ما دامت كلمتكم : الله أكبر . . . !

* * *